

﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾

(في ذكر عمارة القبور)

وقد اشتغل بعض أهل زماننا من أصيب بموت أقاربه ، ببناء قبورهم وتبليطها وتخصيصها ، وبناء التربة المحتوية على القبور وتحسينها وتزيينها ، ويزرعونها أنواع الرياحين ، ويصعدون إليها في الغالب كل يوم خميس بالاهل والأقارب وملاذ الأطلعة وأنواعها ، ويظنون أن ذلك قرابة وطاعة الى الله عز وجل ، وربما يقولون : في هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى . وما علموا أن هذه الأمور من البدع المسكروهة المنهى عنها ، وأن من البدع تعظيم القبور وتبليطها وتخصيصها ، وبناء القباب عليها ، كل هذا من البدع الذي كرهه السلف والعلماء ، وهو يخالف لسنة رسول الله ﷺ وقد روى أبو داود والترمذى من حديث جابر : إن النبي ﷺ نهى أن يخصص القبر ، وأن يبنى عليه . زاد الترمذى وأن يكتب عليه وأن يوطأ ، وحسنه وصححه ولفظ أبي داود : أن يقعد عليه ، وقد بعث النبي ﷺ على بن أبي طالب رضى الله عنه أن لا يدع تمثالا الاطمسه ، ولا قبرا مشرفا الا سواه ، وعن أبي الهياج الاسدى قال قال لى على : ألا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ إذ ذهب فلا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته رواه أبو داود والترمذى . فالسنة تسوية هذه القبور المشرفة بالحجرة المطيئة المخصصة ، وكذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عليها ، ونهى عن اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واشتد نهيه ﷺ حتى لمن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة الى القبور ، حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيداً . وكان رسول الله ﷺ يعظ الناس عند القبور ، كما ثبت ذلك في صحيح البخارى ومسلم من حديث على رضى الله عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأثانا رسول الله ﷺ فجلس وجلسنا حوله ، ومعه مخرصة ، فنكس

وجعل ينسكت بمخصرته . وقال : « مامنكم من أحد الا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال « اعملوا وسددوا وقاربوا وكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ هذه الآية (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وفي الصحيح أيضاً إنه كان يقف عند الدفن ويقول : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » .

﴿ فصل ﴾

وليعلم أن عمارة الأحياء والأَمْوات ليست من خارج ، فإن النبي ﷺ . قال : « إن الله لا ينظر الى صوركم ولا الى لباسكم ولكن ينظر الى قلوبكم » فعمارة القلب هي العمارة النافعة ، والميت في قبره كذلك ، ليست بزخرفة القبر ولا التربة ولا تزويقها ، وإنما العمارة بالصدقة عن ساكنها وأفعال القرب عنه ، وقد تقدم هذا في الباب الذي قبله . أما علم أن القبر الذي يزخرف ظاهره إن باطنه مظلم ضيق ، وقد طرح فيه من هو من أحب أقاربه اليه فريداً وحيداً ، مستوحشاً من غير وسادة ولا تمهيد ، وقد باشر الثرى وواجه البلا ، وترك دنياه بالورى ، ونبت منها ما كان بيده بالعرا ، مع حبيب تركه ، وقرين أسلمه ، فكل ما ذكرته لك يا أخى يفطم النفوس عن الشهوات ، وتعلم أن عمارة البواطن أولى من عمارة الظواهر ، وهي العمارة النافعة في يوم القارعة ، فاذا بحثت عن الحقيقة ، ونظرت بعين البصيرة علمت أنك عن قريب صائر الى ما صار اليه ، وقادم على ما قدم عليه ، فإن العبد بينما هو يمرح في أمنيته ، غافلاً عن يوم مصرعه ، اذ هجمت عليه المنية فهتكت استاره ، وكسفت أنواره ، وطمست أعلامه وآناره ، فاخرجته من قصر مشيد ، وبيت حميد ، مزخرف نضيد ، الى حفرة من الارض كحفرة أخيه أو ولده أو غيرها ، مظلمة

ضيقة الجوانب ، مملوءة من الرعب والفرع ، فاما هي روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، أعاذنا الله منها . قيل لبعض الزهاد : ما ابلغ الموعظة ؟ قال : النظر في محلة الاموات . فاذا كانت القبور النظر اليها موعظة ، وهي أول منازل الآخرة وعبرة لاهل الدنيا ، فلا ينبغي التزين ولا التزخرف ولا ما يفعله غالب الاغنياء من الامراء والتجار وغيرهم ، من ضرب الخيام والخيام وغيرهما في التراب ، ووضع البسط والفرش تحت ذلك وينامون عليها ، واخوانهم تحت ذلك على التراب في حفرة ضيقة مظلمة ، فاي موعظة تعظ هؤلاء بموتهم ؟ بل هذه غفلة نسأل الله تعالى السلامة منها .

﴿ فصل ﴾

وكان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » وروى الترمذى فى جامعه أن النبى ﷺ قال : « ما رأيت منظرا الا والقبر أفظع منه » وروى الترمذى أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . قال : دخل رسول الله ﷺ مصلا فرأى ناسا كأنهم يكتشرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات - يعنى الموت - لشغلكم عما أرى فأكثروا ذكر هادم اللذات الموت فانه لم يأت على القبر يوم الا تسكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربه وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود ، فاذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا أما إن كنت لأحب من مشى على ظهري الى فاذا وليتكم اليوم وصرت الى فسترى صنيعى بك . قال : فيتسع له مد بصره ويفتح له باب الى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قل له القبر : لا مرحبا ولا أهلا أما إن كنت لأبغض من مشى على ظهري الى فاذا وليتكم اليوم فسترى صنيعى بك فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه وتختلف اضلاعه . قال : رسول الله ﷺ باصابعه

فادخل بعضها في بعض . قال : ويقبض له سبعين تنيناً لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا فينبهشنة ويخدشنة حتى يفضى به إلى الحساب قال رسول الله ﷺ إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » وروى الحاكم في كتاب السكفي ، والقاسم بن أصبغ من حديث أبي الحجاج الثمالي قال قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت إذا وضع فيه ، ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ، ما غرك بي يا ابن آدم فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرايت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إني أعود عليه خضراً ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى رب العالمين »

وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرة تقول : أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الوحشة ، وبيت الظلمة وبيت الغربة ، هذا ما أعددت لك يا ابن آدم فما أعددت لي ؟ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إلا أخبركم بيوم قبرى ، يوم أدخل قبرى * وكان جعفر الصادق رضي الله عنه يأتي القبور ليلاً ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تهجيبون ؟ ثم يقول : حيل والله بينهم وبين الجواب ، وكأني أكون مثلهم ، وأدخل في جملتهم ثم يستقبل القبلة حتى طلع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عليه لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقمت البارحة تفكراً في القبر وسأكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليال في قبره لاستوحشت منه بعد طول الأنس به ، ولرايت بيتاً تجول الهوام فيه ، ويمجى فيه الصديد ، وتخرقه الديدان ، مع تغير الريح وتقطع الأكفان ، وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، ثم شهق شهقة خرمغشياً عليه *

وقال بعض الحكماء : أربعة أبحر لأربع ، الموت بحر الحياة ، والنفس بحر الشهوات ، والقبر بحر اللذامات ، وعفو الله بحر الخطيئات . فنسأل الله العظيم أن

يجعل القبر خير بيت نعيمه ونسكنه ا

﴿ فصل ﴾

وإعلم أنه لو دخل شخص الى المقابر المزخرفة ليميز السعيد من الشقي ما علم هذا من هذا ، وما يعلمه الا اعلام الفيوب ، بل قد يكون قبراً من القبور قد درست أعلامه ، وقد بقي ممشي للدواب ، وصاحبه في أعلا الجنان ، وقد يكون قبراً مزخرفاً وقد عليت عايه القباب والبشخانات الحريز وصاحبه في نار جهنم ، بل تقول لو دخل شخص المقابر لم يميز قبر الذكرومن الانثى ، ولا الشيخ من الشاب ، ولا الحر من العبد ، فاذا كان هذا التمييز الذى يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء في الحياة الدنيا قد أبهم علينا بعد الموت ، فكيف نميز السعيد من الشقي ؟ ويشبه هذا ما روى أن الاسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك وبادوا : فقال الاسكندر ، هل بقي من نسل أولئك الملوك أحد ؟ فقل له : ما بقى منهم الا رجل واحد يأوى المقابر ، فدعا به فلما أحضره قال له : ما حلك على لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت الكل سواء . قال له الاسكندر : هل لك أن تتبعنى فأجيز لك بشرف أبائك إن كانت لك همة عظيمة ؟ فقال : إن لى همة عظيمة بشرط إن كانت بغيرى عندك تبعتك . قال : وما بغيرتى ؟ قال : حياة لاموت فيها ، وشباب ليس معه هرم ، وغناء ليس معه فقر ، وسرور ليس معه حزن . قال الاسكندر : أليس ذلك عندى ولا بيدى ، فقال : أى خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هذه الاشياء ؟ فامض لشأنك ودعنى أطلب ذلك ممن يملكه وهو عنده . ثم عاد الى مكانه ولم يلتفت الى الاسكندر * وكان عطاء السليمى رحمه الله إذا جن الليل خرج الى المقابر فيقول : يا أهل القبور متم فوا موتاه ، وعائتم أعمالكم فوا عملاء ، ثم يقول : غدا يكون عطاء فى القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح * وقال سفيان الثورى : من أكثر من ذكر القبر وجدته

روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار * وصلى
على بن أبي طالب رضى الله عنه بالمقابر فوقف عليها قليلا فقال : السلام عليكم أهل
الديار الموحشة ، والمحال المفقرة ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل
لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل
لالحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى في جميع أحواله عن الله تعالى . ثم قال : يا أهل
القبور أما الزوجات فقد نسكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد
قسمت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت الى أصحابه فقال : أما
إني لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى * ويروى أن رجلا دخل على
عمر بن عبد العزيز رحمه الله فرآه قد تغير من كثرة العبادة ، فجعل يتعجب من
تغير لونه واستحالة صفته ، فقال له عمر : يا ابن أخي وما تعجبك مني ؟ فكيف لو
رأيتني بعد دخولي قبري بثلاث ؟ وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ،
وتقطعت الشفتان ، وتقلصت عن الأسنان ، وخرج الصديد والدود من المنخرين
والفم ، وانتفخ البطن فعلا على الصدر ، لو رأيت إذ ذاك مني فهو أعجب مما رأيته
الآن * واعلم رحمك الله أنه من علم مصيره الى هذه الحفرة المظلمة الموحشة لم يبالغ
في تحسين ظاهرها ، مع علمه بما يؤول صاحبها اليه ، مع ترافة جسمه ، وحسن
منظره ، وابن بدنه ، فانه عن قريب سيطرح في حفرة تنقطع فيها أوصاله ، وتتغير
فيها أحواله ، ثم ينتن بعد ذلك ويفر من رائحته من كان عنده من أحب الناس اليه
إذ اطلع عليها ، فاذا نظر العبد بعين بصره وبصيرته الى قبور المترفين من أهل
الدنيا كانهم لم يشاركوا أهل الدنيا أبدا في لذاتهم وطيب عيشهم ، هم والله صرعى
قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام في أجسادهم ،
فأطيبهم وأنعمهم من قد أمن من عذاب الله عز وجل . قال ثابت البناني :
دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذا أنا بصوت يقول : يا ثابت لا يفر فك

صموت أهلها فكم من نفس مهذبة فيها *

﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾

(في أن الله يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت)

قال الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) . قال أكثر المفسرين : هي كلمة التوحيد . وهي قول لا إله إلا الله في الحياة الدنيا - يعني قبل الموت - وفي الآخرة - يعني في القبر - وذهب بعض المفسرين الى أن قال : في الحياة الدنيا في القبر عند السؤال ، وفي الآخرة عند البعث ، والأول أصح * عن البراء بن عازب رضى الله أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم اذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وفي لفظ نزالت في عذاب القبر . يقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبى محمد ، وذلك قول الله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الآية * رواه البخارى ومسلم ، ورواه الامام أحمد مطولاً ، وأهل السنن والمسائيد * ورواه الامام أبو داود في سننه بأتم من هذا من حديث البراء أيضاً ولفظه . قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتبهنا الى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال : « اسمعوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » وذكر صفة قبض الروح وعروجها الى السماء ، ثم عودها اليه الى أن قال : « وإنه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » وفي لفظ « فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الاسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ قال :